١٩٩٨٠٧١٨-٠٠٠١-٣

AS.SAFIR | Saturday July 18, 1998

كلاكيت

كوابيس السلام

توفي موسى جدع في التاسع عشر من آذار ١٩٩٨، قبل أن يخبره أحدهم «الحقيقة» المنتظرة. كان «حلمه» الوحيد(!) أن يعرف مصير ابنه وشقيقه، بعد ثلاثة عشر عاما على اختفائهما. وكان اختزل المأساة، بجلوسه وحيدا يروي حكايته، وبتركنا فجأة، وفي القلب غصة، وفي العين ما يشبه الدمعة. لعله كان تجسيدا آخر لنايفه، المرأة التي لم تحتمل غياب ابنها علي أكثر من سنة، فجرعت كأس الموت، وغادرت المكان، بحثا عمن أضاعته لحظة جنون أصابت وطنا بكامله.

قلّة من الناس تعرف من هو موسى جدع، ومن هي نايفه، ومن هم هؤلاء الذين استعادوا حكاياتهم، ربما للمرة الألف، لكن من دون ملل، أمام كاميرا بهيج حجيج، في فيلمه الوثائقي الجديد «مخطوفون». قلة من الناس عاشت معه/ معهم سنوات القلق والخوف والألم، لكن أحدا لا يستطيع أن يفهم سرّ الأمل فيهم، أو أن يعايش الحلم الدائم بتحقيق رغبة سقطت في وهم الانتظار: غادر موسى جدع هذه الدنيا متحسّرا وصامتا، وفي صمته وحسرته صرخة مؤلمة تعكس رفضه الانصياع الى مؤامرة السلام الهشّ، الأعنف من دسائس الحرب. وكغيره من أهالي المخطوفين وأبنائهم، كان يطالب بمعرفة «الحقيقة». لكنه مات، ولم يعرف شيئا، لأنه كان متأكّدا من أن سلطة السلام المنقوص اغتالت حقّه بالمعرفة.

كنت واحدا من كثيرين لم يتعرّفوا الى موسى جدع، أو الى أي واحد من هؤلاء الناس، ولم ينتبهوا الى تلك المرارة القاسية التي عصرت قلبه ومشاعره، وتركته معلّقا بين أكذوبة الواقع ومتاهة الحقيقة وانكسار الحلم. ذات يوم، أُخبرت عن نايفه، وقرأت عن آخرين، لكني لم ألمس أبدا ذلك النبض المتأجج في مشاعرهم، وهم يطالبون بكشف النقاب عن المصير الملتبس لسبعة عشر ألف مخطوف «لا يُمكن أبدا أن يضيع أثرهم نهائيا، هكذا»، كما قال أحدهم في شريط حجيج. غير أني، بين موسى ونايفه، سمعت الحكاية: سلطة موبوءة بفساد الحرب، تريد أن يُعلن الأهالي موت المخطوفين، كي تتنصّل من مسؤولياتها. سلطة تريد إقفال الملف، لتستريح على أنقاض المأساة. سلطة مشغولة بأمور كثيرة، والمطلوب واحد.

حكاية «مخطوفون» لا تنبني، فقط، على شخصية موسى جدع، الذي خُطف ابنه وشقيقه، في واحدة من تلك المحطات الأبشع في تاريخ الحرب اللبنانية؛ ولا تتوقف عند انتحار نايفه. انها حكايتنا: تُرى، من هو المخطوف، حقيقة؟ نحن الذين ندور في دوّامة السلام المنقوص، أم أهالي المخطوفين الغارقين في متاهة الكذب واللامبالاة والقمع؟ مع بهيج حجيج، نعيد طرح التساؤلات، ونحاول أن نحتفظ بالحد الأدنى من ذاكرتنا المشبعة بألف مأساة وحكاية. ففي «مخطوفون»، شاهدنا مسيحيين ومسلمين، على خلفية التكبير في صوت المؤذّن، وأجراس الكنائس والصلبان المعلّقة، وهم جميعا يروون الحكاية نفسها: مواطنون أبرياء (لعل تهمتهم الوحيدة أنهم أبرياء، فعلا)، خُطفوا في الفترة الممتدة بين العامين ١٩٨٢ و١٩٨٥، ولم يُعثر على أي أثر لأي واحد منهم، حتى الآن. أما الذين رووا الحكاية، فكانوا يبحثون عن معنى لهذه الحياة. كانوا أمام الكاميرا عائلة من الأوجاع والرغبات المحطّمة والأحلام المشوّهة التي تحتضر وترفض أن تموت.

كانت كاميرا حجيج قاسية وهي تكشف «الوجه الآخر الخفي للخطف»: أناس على حافة الجنون، قلقون، مرتبكون ومتألمون، لكنهم متمسكون بحق معرفة الحقيقة. واذا بـ«مخطوفون» يتحوّل الى شهادة إنسانية مؤثّرة وصادقة.

ندى جرجوره